
جبران خليل جبران
المجنون
المكتبة الثقافية
Bibliotheca Alexandrina
0201874

المجنون

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

كيف صرت مجنوناً؟

هذه قصّتي إلى كل من يودّ أن يعرف كيف صرتُ مجنوناً : في قديم الأيام قبل ميلاد كثيرين من الآلهة نهضت من نوم عميق فوجدت أن جميع براقعي قد سُرِقت — البراقع السبعة التي حكتُها وتقنعتُ بها في حيواتي السبع على الأرض . — فركضت سافر الوجه في الشوارع المزدحمة صارخاً بالناس : « اللصوص ! اللصوص ! اللصوص الملاعين ! » فضحك الرجال والنساء مني وهرب بعضهم إلى بيوتهم خائفين مذعورين .

وعندما بلغت ساحة المدينة إذا بفتًى قد انتصب على أحد السطوح وصرخ قائلاً : « إنّ هذا الرجل مجنون أيها الناس ! » وما رفعت نظري لأراه حتى قبّلت الشمس وجهي العاري لأول مرة . لأوّل مرّة قبلت الشمس وجهي العاري فالتهبت نفسي بمحبة الشمس ولم أعد بحاجة إلى براقعي . وكأنما أنا في غيبوبة صرخت قائلاً : « مباركون مباركون أولئك اللصوص الذين سرقوا براقعي ! »

هكذا صرت مجنوناً ، ولكني قد وجدت بجنوني هذا ، الحرية والنجاة معاً : حرية الانفراد ، والنجاة من أن يدرك الناس كياني ؛ لأن الذين يدركون كياننا إنّما يستعبدون بعض ما فينا .

ولكن لا أفخرنّ كثيراً بنجاتي . فإن اللصّ وإن كان في غيابة السجن فهو في مأمن من أقرانه اللصوص !

الله

عندما ارتعشت شفتاي بالنطق لأول مرة ، صعدت إلى الجبل المقدس وناديت الله قائلاً : « إنني عبدك يا ربي : مشيئتك الخفية شريعتي ، وسأظل خاضعاً لك سحابة الحياة . »

فلم يجبني الله بل مرّ كعاصفة هوجاء واختفى عن ناظري .

وبعد ألف سنة صعدت ثانية إلى الجبل المقدس وخاطبت الله قائلاً : « أنا جبلة يديك يا خالقي ، من تراب الأرض صنعتني وبنفحة من روحك العلوية أحييتني . فأنا مدين لك بكليتي . »

فلم يجبني الله ، وكألف من الأجنحة الخاطفة اجتاز بي عابراً .

وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس أيضاً وناجيت الله ثالثة قائلاً : « يا أبتاه القدوس : أنا ابنك الحبيب . بالرأفة والمحبة ولدتني وبالمحبة والعبادة سأرث ملكوتك . »

فلم يجبني الله في هذه المرة أيضاً . وكالضباب الذي يغشى قصيّ التلال توارى عن عيني .

وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس وخاطبت الله رابعة قائلاً : « يا إلهي الحكيم العليم ، يا كمالي ومجدي ، أنا أمسك وأنت غدي . أنا عروق لك في ظلمات الأرض وأنت أزاهر لي في أنوار السماوات ونحن ننمو معاً أمام وجه الشمس . »

فعطف الله إذ ذاك عليّ وانحنى فوقي وهمس في أذني كلمات تذوب رقة وحلاوة ، وكما يطوي البحر جدولاً منحدراً إليه طواني الله في أعماقه

وعندما انحدرت إلى الأودية والسهول كان الله هنالك أيضاً .

يا صاحبي

يا صاحبي : إنني لست على ما يبدو لك مني : فما مظاهري سوى رداء دقيق الصنع محوك من خيوط التساهل والحسنى : ألتفّ به ليدرأ عني تطفلك ويقيك من إهمالي وتغافلي . وأما ذاتي الخفية الكبرى التي أدعوها أنا فسرّ غامض مكنون في أعماق سكون نفسي ولا يدركه أحد سواي ، وهنالك سيبقى أبداً غامضاً مستتراً .

يا صاحبي : إنني أودّ أن لا تصدّق ما أقول وأن لا تثق بما أفعل ، لأنّ أقوالي ليست سوى صدى لأفكارك ، وأفعالي ليست سوى أشباح آمالك .

يا صاحبي : عندما تقول لي : «الريح تهبّ شرقاً» أجيبك على الفور قائلاً : «نعم إنها تهبّ شرقاً» لأنني لا أريد أن يخطر لك أن أفكاري السابحة مع أمواج البحر لا تستطيع أن تحلّق طائرة على متون الرياح . أما أنت فقد مزقت الأرياح نسيج أفكارك القديمة البالية فبتّ قاصراً عن إدراك أفكاري العميقة المرفرفة فوق البحار . وحسن أنك لم تدرك كنهها لأنني أريد أن أمشي على البحر وحدي .

يا صاحبي : عندما تبزغ شمس نهارك تدنو ظلمة ليلي ، ومع ذلك فإني أحدّثك من وراء ستائر ظلمتي عن أشعّة الشمس الذهبية التي ترقص عند الظهيرة على قنن الجبال وعما تحدثه في رقصها من الظلال الظليلة المنسابة إلى الأودية والحقول — أحدثك عن كل ذلك لأنك لا تستطيع أن تسمع أناشيد ظلمتي ولا أن ترى خفقان جناحيّ بين الكواكب والنجوم . وما أحلى أنك لا تسمع ولا ترى ذلك لأني أوثر أن أسامر الليل وحدي .

يا صاحبي : عندما تصعد إلى سمائك أهبط إلى جحيمي . ومع أنه

تفصلني عنك هوّة لا يستطاع عبورها تظلّ تناديني قائلاً : «يا رفيقي ، يا صاحبي » ، فأجيبك : «يا رفيقي ، يا صاحبي » ، لأنّني لا أريد أن ترى جحيمي ، فإن لهيبه يحرق باصرتيك ودخانه يسدّ منخريك . أما أنا فإنني أضنّ بجحيمي أنْ يزوره من كان على شاكلتك ، لأنني أفضل أن أكون في جحيمي وحدي .

يا صاحبي :أنت تقول إنّك تعشق الحقّ والفضيلة والجمال،وأنا أقول مقتدياً بك إنّه يليق بالإنسان أن يعشق مثل هذه المناقب ، غير أنني أضحك من محبتك في قلبي ساتراً ضحكي عنك ، لأنّني أريد أن أضحك وحدي .

يا صاحبي : إنّك رجل فاضل متيقظ حكيم ، بل إنّك رجل كامل . ولذلك فإنّي ضناً بكرامتك أخاطبك بحكمة وتيقّظ — ولكنّي مجنون منجذب عن العالم الذي تقطنه أنت إلى عالم غريب بعيد ، وإنني أستر عنك جنوني لأنّني أود أن أكون مجنوناً وحدي .

أنت لست بصاحبي ، يا صاحِ ! ولكن كيف السبيل لإقناعك فتفقهوتفهم؟ إن طريقي غير طريقك ولكننا نمشي معاً جنباً إلى جنب .

اللعين

قلت مرّة للّعين[1] : «ألم تسأم نفسك الإقامة في هذا الحقل وحيداً منفرداً ؟»

فأجابني قائلاً : «إنّ لي في التخويف للذّة لا يُسبر غورها ، ولذا فإني راضٍ عن عملي ولا أملّه . »

---

[1] هو الشاخص الذي ينصب في هيئة الرجل بين الزرع لطرد الوحوش .

ففكرت هنيهة ثم قلت له : « بالصواب أجبت ؛ فإنّه قد سبق لي فخبرت هذه اللذة بنفسي . »

فأجابني قائلاً : « إنّك واهم يا هذا ، فإن هذه اللذة لا يعرف طعمها إلا من كانَ محشواً بالقش مثلي . »

فتركته إذ ذاك وانصرفت وأنا لا أدري هل مدحني أم تنقّصني .

وانقضى عام صار اللعين في أثنائه فيلسوفاً علاّمة . وعندما مررت به ثانية رأيت غرابين يبنيان عشاً تحت قبّعته .

بين هجعة ويقظة

كان في المدينة حيثما وُلدت امرأة وابنة ، وكانت لهما عادة أن تمشيا وهما نائمتان .

فحدث في إحدى ليالي الصيف الهادئة الجميلة أن نهضت الأم وابنتها من نومهما على جاري عادتهما ومشتا — وهما نائمتان — في حديقتهما المبرقعة بالضباب .

وفيما هما ماشيتان قالت الأم لابنتها : « تبّاً لكِ من عدوّ شرّير ! أنتِ التي هدمت شبابي وبنت حياتها على أنقاض حياتي ! آه لو أستطيع أن أقتلك ! »

فأجابت الابنة وقالت : « أيتها المرأة الممقوتة والخيزبون الأنانية الرثة القائمة بيني وبين ذاتي الطليقة ، يا من تودّ أن تكون حياتي صدى لحياتها الرثة البالية ! ألا ليتك تهلكين ! »

وفي تلك اللحظة صاح الديك فأفاقتا معاً من نومهما وهما بعد في الحديقة ماشيتان .

فقالت الأم بلطف : « أذاك أنت يا حمامتي ؟ » فأجابت الأبنة بحلاوة « نعم أنا ابنتك يا حنونتي ! »

الناسكان

عاش ناسكان في قنة جبل عالٍ ، وكانا دائبين في عبادة الله وحبهما الواحد للآخر .

وكان لهذين الناسكين قصعة من الخزف لم يكن لهما غيرها مقتنى

ففي أحد الأيام وسوس الخناس في قلب الناسك الكهل فجاء إلى رفيقه الشاب وقال له : « لقد مضى على حياتنا معاً زمن طويل وقد آن لنا أن نفترق . ولذا فإني أريد أن نقسم مقتنياتنا . »

فاكتأب الناسك الشاب وأجابه قائلاً : « إن انفصالك عني يجرح قلبي وحقك يا أخي . ولكن إن كان ثمة من ضرورة لذهابك فلتكن مشيئتك . »

ثم تناول القصعة الخزفية بيده وقال له : « إن هذه القصعة هي كل ما نقتني أيها الأخ العزيز ، ولما كانت قسمتها بيننا مستحيلة فأرى أن تكون لك وحدك . »

فأجابه الناسك الكهل وهو يتميز غيظاً قائلاً : « إنني لا أطلب منك صدقة ولا أقبل متاعاً ليس لي ؛ ولذا يجب أن تقسم القصعة فينال كل منا نصيبه منها. »

فقال له الشاب برقة : « إذا قسمنا القصعة فأية منفعة ترجى من قسمتها

سواء لك أم لي ؟ دعنا إن حسن لديك نقترع عليها . »

فأجابه الكهل وقال : « إنّني لا أريد سوى حصتي كما تقضي العدالة بيننا . ولن أرضى البتة عن القرعة العمياء التي تحطّ من قدر العدالة وتجعلني مقامراً أعرض الغدالة وحصتي لصدفة عمياء . ولذا أطلب قسمة القصعة . »

فلم يبق إذ ذاك مجال للشاب أن يبحث معه في الموضوع ، فقال له : « إذا كانت هذه حقيقة رغبتك أيها الأخ الحبيب ووددت أن يكون الأمر على ما وصفت فلنقسم القصعة . »

فاسودّ وجه الناسك الكهل وصرخ به قائلاً : « تبّاً لك ، ما أجبنك وما أقعدك عن الخصام أيها الخامل البليد ! »

الكلب الحكيم

مرّ كلب حكيم ذات يوم بجماعة من السنانير ، ولما دنا منهم رآهم منصرفين عنه ولم يعبأوا بقدومه . فوقف يتأملهم مستغرباً أمرهم .

وفيما هو يتطلّع إليهم نهض من بين الجماعة سنور بادن تبدو على وجهه أمائر الهيبة والوقار ، فنظر إلى رفقائه وقال لهم : « صلوا أيها الاخوة المؤمنون ، فإني الحق أقول لكم إنكم إذا صليتم وكررتم صلاتكم بحرارة يستجاب تضرّعكم وتمطركم السماء فئراناً في الحال . »

فلمّا سمع الكلب الحكيم تلك العظة البالغة ضحك منهم في قلبه وارتدّ عنهم وهو يردّد لنفسه قوله : « ما أغبى هؤلاء السنانير وما أعمى بصائرهم عن إدراك ما في الكتب ! أليس مكتوباً ، بل ألم أقرأ أنا وأجدادي من قبل

أخبروني أن ما تمطره السماء إجابة للصلوات والتضرعات والابتهالات ليس فئراناً بل عظام ؟»

اطلبوا تجدوا

كان في قديم الزمان إنسانٌ وكان له ملء وادٍ من الإبر .

ففي أحد الأيام جاءت إليه أم يسوع وقالت له : «يا صاحب ، إن رداء ابني مشقوق وأريد أن أرتقه له قبل أن يذهب إلى الهيكل ، أفلا تقرضني إبرة ؟ »

فلم يعطها إبرةً ، غير أنه أعطاها عظة بالغة كانت عنده ، موضوعها «اطلبوا تجدوا » ، لكي تأخذها إلى ابنها قبل أن يذهب إلى الهيكل .

الذوات السبع

في سكون الليل العميق وقد بدأ النعاس يغالبني جلست ذواتي السبع يتحادثن .

فقالت الذات الأولى : «لقد مرّت الأيام والأعوام على وجودي في هذا المجنون وليس لي ما أفعله سوى تجديد آلامه نهاراً وأحزانه ليلاً وقد كرهت نفسي القيام بهذه الوظيفة المملة ، فلأثورنّ عليه . »

فأجابتها الذات الثانية قائلة : « إنكِ أوفر منّي حظّاً يا أختاه . فقد قدّر لي أن أكون شريكة لهذا المجنون في أفراحه وملذاته فأضحك لضحكه وأترنم في ساعات سروره ، وبأقدام مثلثة الأجنحة أرقص لأفكاره البرّاقة ، فإن تكن ثورة ، فمن أحقّ بها منّي ؟ »

فقالت الذات الثالثة : « أواه أيتها الرفيقتان ! إن عملي أدعى إلى الثورة من عمليكما . فأنا الذات المريضة حبّاً المتلهبة شوقاً الهائمة حنيناً ! ألا إن الثورة على هذا المجنون من شأني وأنا ذات الشقاء والأسى . »

فقالت الرابعة : « إنّني أكثر منكنّ شقاء أيتها الرفيقات . فقد قدّر لي أن أثير كوامن البغض وأوقظ نيران الكره والحقد في قلب هذا المجنون . فأنا ، الذات الثائرة الهوجاء المولودة في كهوف الجحيم السوداء . أحقّ منكنّ بالثورة على مهمّتي . »

وقالت الذات الخامسة : « إنّني أغبطكنّ جميعاً أيتها الأخوات بما قدّر لكنّ من العمل السعيد ، فقد آثر الدهر أن أجدّد أحلام هذا المجنون التي لا تنتهي : وأهيج جوعه وعطشه اللذين لا يسكنان ، هائمة به على وجهي في فضاء اللانهاية من غير أن أتذوّق طعم الراحة : ناشدة ما لم يُعرف قطّ وما لم يُخلق بعد ، فأنا — أنا أولى منكنّ بالثورة والعصيان . »

فقالت الذات السادسة : « ما أسعدكنّ أيتها الاخوات وما أتعسي وأشقاني ! فأنا الذات المشتغلة العاملة الحقيرة التي بيديها الدائبتين وعينيها الساهرتين ترسم من أيامها صوراً وتمنح العناصر الدنيئة العديمة الشكل أشكالاً جميلة خالدة — ألا انّه أجدر بي أنا الذات المعتزلة الهادئة أن أنقم وأثور . »

فتطلعت الذات السابعة في كل منهن وقالت : « أف منكن جميعاً ! ما اغرب ثورتكن على هذا الرجل المسكين بحجة ان لكل منكن عملاً محموداً . حبذا لو اسعدتني الايام بعمل محدود كأعمالكن . فأنا ذات بطّالة لا عمل لها

اجلس ابداً بين اللانهايتين — الصمت والظلام — في حين أن كل واحدة منكنّ دائبة في تجديد الحياة على تنوع مظاهرها . بربّكنّ قلن لي أيتها الشقيقات من منّا أحقّ بالثورة ، أأنتن أم أنا ؟ »

ولما فرغت الذات السابعة من كلامها نظرت إليها الذوات الستّ بشفقة وحنان ولم يحرن جواباً .

وجنّ الليل فرقدن وفي طيات صدورهنّ استسلام جديد وخضوع سعيد كل لما قسم لها من الواجب المحدود !

أما الذات السابعة فظلّت شاخصة تراقب اللاشيء الذي وراء كل شيء .

العدالة !

وكان عرس في قصر الأمير في إحدى الليالي ، وكان المدعوون يدخلون ويخرجون . فدخل رجل مع الداخلين وحيّا الأمير باحترام ووقار . فنظر إليه الجميع بدهشة لأن إحدى عينيه كانت مفقوءة والدم ينزف من نقرتها الفارغة .

فسأله الأمير قائلاً : « ما دهاك يا صاح ؟ » فأجابه الرجل قائلاً : « أنا لص أيها الأمير ، وقد اغتنمت فرصة في ظلمة هذه الليلة على جاري عادتي وذهبت لأسرق أموال أحد الصيارفة . وفيما أنا أتسلق الجدار لأدخل دكان الصيرفي ضللت سبيلي ودخلت من نافذة جاره الحائك . فعدوت طالباً الهرب وأنا لا أبصر شيئاً لشدّة الظلام ، فلطم نول الحائك عيني وفقأها . ولذلك قد أتيتك الآن ملتمساً أن تنصفني من الحائك . »

فأرسل الأمير واستدعى الحائك . فأحضر الحائك في الحال ، فأمر الأمير أن تقلع عينه .

فقال له الحائك : « بالصواب حكمت أيها الأمير ، فإن العدالة تقضي بقلع عيني ، ولكنه غير خاف على سموك أنني أحتاج في حرفتي إلى عينين لكي أرى حاشيتي الشقة التي أنسجها : غير أن لي جاراً إسكافاً له عينان مثلي ولكنه لا يحتاج في مهنته إلا إلى عين واحدة . فاستدعه إن أردت واقلع إحدى عينيه للمحافظة على الشريعة . »

فأرسل الأمير في الحال واستدعى الإسكاف ، فحضر واقتلعت عينه .

وهكذا تأيّدت العدالة !

الثعلب

خرج الثعلب من مأواه عند شروق الشمس ، فتطلع إلى ظلّه مندهلاً وقال : « سأتغدّى اليوم جملاً . » ثم مضى في سبيله يفتش عن الجمال الصباحَ كله . وعند الظهيرة تفرّس في ظلّه ثانية وقال مندهشاً : « بلى ، إن فأرة واحدة تكفيني . »

الملك الحكيم

كان في إحدى المدن النائية ملك جبار حكيم ، وكان مخوفاً لجبروته محبوباً لحكمته .

وكان في وسط تلك المدينة بئر ماء نقي عذب ، يشرب منها جميع سكان المدينة من الملك وأعوانه فما دون لأنّه لم يكن في المدينة بئر سواها .

وفيما الناس نيام في إحدى الليالي جاءت ساحرة إلى المدينة خلسة وألقت في البئر سبع نقط من سائل غريب وقالت : « كلّ من يشرب من هذا الماء فيما بعد يصير مجنوناً . »

وفي الصباح التالي شرب كل سكان المدينة من ماء البئر وجنّوا على نحو ما قالت الساحرة . ولكنّ الملك والوزير لم يشربا من ذلك الماء .

وعندما بلغ الخبر آذان المدينة طاف سكانها من حي إلى حي ومن زقاق إلى زقاق وهم يتسارّون قائلين : « قد جنّ ملكنا ووزيره . إن ملكنا ووزيره قد أضاعا رشدهما . إنّنا نأبَى أن يملك علينا ملك مجنونٌ . هيا بنا نخلعه عن عرشه ! »

وفي ذلك المساء سمع الملك بما جرى فأمر على الفور بأن يملأ حق ذهبي (كان قد ورثه عن أجداده) من مياه البئر . فملأوه في الحال وأحضروه إليه . فأخذه الملك بيده وأداره إلى فمه . وبعد أن ارتوى من مائه دفعه إلى وزيره فأتى الوزير على ثمالته .

فعرف سكان المدينة بذلك وفرحوا فرحاً عظيماً جداً لأن ملكهم ووزيره ثابا إلى رشدهما . »

الطموح

جلس ثلاثة رجال إلى خوان في حانة . وكان الأول حائكاً والثاني نجاراً والثالث حفار قبور .

فقال الحائك لرفيقيه : « قد بعت اليوم كفناً بديعاً من الكتان بدينارين . فلنشرب ما طاب لنا من الخمر . »

فأجابه النجار وقال : « أما أنا فقد بعت أثمن نعش عندي . فلنأكل أفخر اللحوم مع الخمر . »

فقال لهما حفار القبور : « إنني لم أحفر اليوم سوى قبر واحد . أيها الصديقان ، ولكن الذي استأجرني دفع لي الأجر مضاعفاً . فلنستحل بقليل من العسل . »

فحفلت الخمارة بهم في تلك الليلة لأنهم طلبوا الخمر واللحم والعسل مراراً وكانوا يرقصون طرباً .

أما صاحب الحانة فكان يتلفت بين آونة وأخرى إلى زوجته متبسماً وهو يكاد لا يصدق ما يراه بعينيه . لأن ضيوفه الثلاثة كانوا ينفقون المال من غير حساب .

وظل الأصحاب في الحانة إلى ساعة متأخرة من الليل يأكلون ويشربون . وبعد أن امتلأوا من كل شيء انصرفوا وهم يغنون ويضجون .

وكان صاحب الحانة وزوجته واقفين بباب حانتهما يشيعان ضيوفهما بأنظارهما.

فقالت المرأة لزوجها : حبذا لو يسعدنا الحظ في كل يوم بمثل هؤلاء الزبائن الكرماء الشرفاء . فإننا نتمكن وقتئذ من إعفاء ابننا الوحيد من خدمة هذه الحانة القذرة ونستطيع تعليمه ليصير في المستقبل قسيساً

اللذة الجديدة

اخترعت في ليلتي الماضية لذة جديدة .

وبينما كنت أتمتّع بها لأول مرة رأيت ملاكاً وشيطاناً قد وقفا ببابي يتخاصمان ويتناقشان على تعريف لذتي .

فكان الأول يصرخ بأعلى صوته قائلاً : « إنها خطيئة مميتة . »

فيعترضه الثاني قائلاً بصوت أشدّ من صوته : « لا ، لعمري إنها فضيلة . »

اللغة الاخرى

حدث أنّه بعد ميلادي بثلاثة أيام كنت متكئاً في مهدي الحريريّ أتفرس بلهفة غريبة في العالم الجديد حواليّ .

فقالت أمي للمرضع : « كيف حال ولدي اليوم ؟ » فأجابتها قائلة : « هو بخير يا سيدتي ، فقد أطعمته ثلاث مرات ، ولم أر قط قبله طفلاً بشوشاً مثله . »

فما سمعت ذلك حتى ثار ثائر غضبي وصرخت قائلاً : « لا تصدقي ، لا تصدقي ذلك يا أماه ، فإن فراشي خشن الملمس ، والحليب الذي رضعته مرّ المذاق ، ورائحة الثدي كريهة في أنفي ، فيا شدّ ما بي من تعاسة ! »

فلم تفهم أمي لغتي وكذلك المرضع لم تفقه ما قلته لأنني خاطبتهما بلغة العالم الذي أتيت منه .

وفي اليوم الحادي والعشرين لولادتي ، وهو اليوم الذي تعمدت فيه ، قال الكاهن لأمي : « إنّني أهنئك يا سيدتي لأن ابنك ولد مسيحياً . »

فقلت للكاهن مندهشاً : « إذا كان الأمر كما تقول فأحرِ بأمك التي في السماء أن تكون تعسة بك لأنّك لم تولد بعد مسيحياً . »

فلم يفهم الكاهن ما قلته له بلغتي .

وبعد سبعة أقمار جاءنا عرّاف فتفرس في وجهي ملياً وقال لأمّي : « إن ابنك هذا سيكون زعيماً داهية وسيتبعه الناس طائعين . »

فصرختُ بأعلى صوتي قائلاً : « تلك نبوءة كاذبة ، فأنا أدري بنفسي وأعلم يقيناً أنّني سأدرس الموسيقى والغناء ولن أكون إلاّ موسيقياً . »

ولشدّ ما دهشت إذ لم يفهم أحدٌ لغتي مع أنني كنت قد بلغت ذلك الحد من عمري .

ولقد مرّ على ذلك ثلاثٌ وثلاثون سنة وقد ماتت أمي والمرضع والكاهن (ظلل الله أرواحهم برحمته) . أما العراف فلا يزال حياً يرزق . وقد رأيته في الأمس أمام الهيكل فحدّثته وحدّثني وأطلعته على انخراطي في سلك أبناء الموسيقى فقال لي : « قد طالما وثقت بأنّك ستكون موسيقياً كبيراً ، ولقد سبقت في أيام طفولتك فأنبأت أمك بمستقبلك هذا . »

فصدقت قوله لأني أنا نفسي نسيت لغة العالم الذي أتيت منه .

الرمانة

عشت مرّةً في قلب رمّانة . وبينما أنا جالس يوماً في خليّتي، سمعت حبة تقول : « سأصير في المستقبل شجرة متعالية تترنم الأرياح بأغصانها وترقص الشمس على أوراقها . وسأكون قويةً جميلة على ممر الفصول . »

فأجابت حبّة ثانية وقالت : « ما أجهلك أيتها الرفيقة ! فإنّي حين كنت صغيرة مثلك حلمت أحلامك . ولكنني بعد أن صرت قادرة على تحديد كل شيء بمقياس ومعيار أدركت أنّ جميع آمالي كانت باطلة . »

ثم قالت حبّة ثالثة : « وأما أنا فإنّني لا أرى فينا ما ينبىء بمثل هذا المستقبل العظيم . »

فأجابت حبّة رابعة وقالت : « إذا لم ترمِ حياتنا إلى مستقبل أنبل وأبهى فباطلة هي . »

فوقفت إذ ذاك حبة خامسة وقالت : « ما بالنا نتجادل فيما سيؤول إليه أمرنا في المستقبل في حين أنّنا لا نعرف ما نحن عليه اليوم ؟ »

فقالت حبة سادسة : « إنّنا سنظلّ أبداً على ما نحن عليه الآن . »

فأجابتها حبة سابعة قائلة : « إن في ذهني صورة واضحة للمستقبل ولكنني لا أستطيع أن أرسمها بالألفاظ . »

ثم تكلمت حبة ثامنة وتاسعة وعاشرة وحبوب كثيرة حتى تكلم الجميع فلم أفهم شيئاً لوفرة الأصوات وبلبلتها .

فتركت الرمانة في ذلك اليوم وأتيت فسكنت في سفرجلة حيث لا إلا قليل من الحبوب تعيش بصمت وسكون

القفصان

كان في حديقة أبي قفصان .

وكان في أحدهما أسدٌ أحضره عبيد أبي من براري نينوى ، وفي الثاني زرزور غريد لا يملّ الانشاد .

وكان الزرزور يأتي في كل فجر إلى الأسد فيحييه قائلاً له : « عم صباحاً يا أخي السجين ! »

النملات الثلاث

اجتمع ثلاث نملات على أنف رجل كان نائماً في الشمس ، فحيت كلّ منهنّ الأخرى بتحية قبيلتها . ثم وقفن هنالك يتحدثن .

فقالت النملة الأولى : « إن هذه التلال والسهول التي نحن عليها اليوم هي أقفر جهة وطئتها في حياتي على الأرض ؛ فقد طفت النهار بطوله أفتش عن حبة من أي نوع كان فلم أظفر بشيء . »

فأجابت النملة الثانية وقالت : « قد طالما سمعت أبناء قبيلتي يتحدّثون عن مكان يطلقون عليه اسم الأرض الملساء الجرداء وما أكثر ما لهم في دورانها وحركتها من الآراء ! وإنّه ليلوح لي أنّنا نسير اليوم عليها لأنّني جلت في جميع منعرجاتها وعطفاتها وخبرت بنفسي حقيقتها . »

فرفعت النملة الثالثة رأسها وقالت : « أيتها الصديقتان ، نحن الآن واقفون

على أنف النملة العظمى – النملة الجبارة اللامتناهية ، التي تغاظم جسمها حتى عجزت عن رؤيته عيوننا ؛ واتسع ظلّها حتى قصرت عن استقصائه مقاييسنا ؛ وارتفع صوتها حتى كلّت عن سماعه آذاننا . هذه هي النملة الأزلية المالئة الأرجاء بلانهايتها . »

وعندما فرغت النملة الثالثة من كلامها نظرت كل من رفيقتيها إلى الأخرى وضحكتا من حديثها .

وفي تلك اللحظة تحرّك الرجل في رقدته فرفع يده وحكّ أنفه فانسحقت النملات الثلاث تحت أصابعه .

حفار القبور

بينما كنت يوماً أدفن ذاتاً من ذواتي الميتة إذ وقف بي حفار القبور وقال لي :

« أنت هو الرجل الفرد الذي وقع بقلبي دون جميع الذين يأتون إلى هذه المقبرة . »

فقلت له : « لقد سرّني قولك يا صاح ، ولكن لماذا وقعت بقلبك دون سواي من الناس ؟ »

فأجابني قائلاً : « إن سواك يأتي باكياً ويعود باكياً ، أما أنت فإنك تجيء ضاحكاً وترجع ضاحكاً . »

على درجات الهيكل

رأيت في مساء الأمس امرأة جالسة على درجات الهيكل .

وكان جالساً معها رجلان واحد عن يمينها والآخر عن يسارها ينظران إليها .

وقد لاحظت متعجباً أن وجنتها اليمنى كانت شاحبة وأن وجنتها اليسرى كانت مورّدة .

المدينة المباركة

خُبّرت في حداثتي عن مدينة كان جميع الناس يعيشون فيها وفق تعاليم الكتاب ، فقلت لنفسي : « لأسعَ إلى تلك المدينة سعياً فأحظى بما فيها من البركة العليا . »

وكانت المدينة بعيدة فأعددت للسفر كامل العدّة . وبعد مسير أربعين يوماً أشرفت عليها . وفي اليوم التالي دخلت إليها فإذا كل سكانها أعور أقطع . فأخذتني الحيرة وقلت لنفسي : « وهل على كل من يعيش في هذه المدينة المقدسة أن يكون أعور أقطع ! »

ثم لحظت أن القوم كانوا ينظرون إليّ بدهشة أعظم من دهشتي ، لأنهم هم أيضاً كانوا متعجبين من عينيّ ويديّ .

وفيما هم يتحدّثون سألتهم قائلاً : « هل هذه هي المدينة المقدسة

حيث يعيش كل إنسان وفق تعاليم الكتاب ؟ »

فقالوا : « نعم هذه هي المدينة . »

فقلت لهم : « وماذا حلّ بكم ؟ أين عيونكم اليمنى وأيديكم اليمنى ؟ »

فرثى الشعب لحالتي وأشفقوا على جهالتي وقالوا : « تعال وانظر . »

ثم قادني واحد من متقدميهم إلى داخل الهيكل القائم في وسط المدينة .

وعندما دخلت الهيكل رأيت في الصدر رابية من العيون والأيدي الذابلة .

فقلت لهم . والدهش آخذ منّي كل مأخذ : « بربكم قولوا لي أيّ غازٍ سفّاح أغار عليكم فحكم بقطع أيديكم وقلع عيونكم ؟ »

فأنّ الجميع بمرارة متعجبين من جهلي ودنا منّي أحد شيوخهم وقال لي : « يا ابني . إنما نحن الذين فعلنا ذلك بأنفسنا لأن الله سلطنا على الشر الذي كان حالاً بنا فأستأصلنا جرثومته . » ثم قادني إلى مذبح عالٍ وجميع الشعب يتبعنا ، وهناك أشار بإصبعه إلى آية محفورة فوق المذبح وطلب إليّ أن أقرأها فقرأت :

« إذا كانت عينك اليمنى تشككك فاقلعها وألقها عنك ، فخير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كلّه في جهنم . وإذا شككتك يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك . لأنّه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كلّه في جهنم . »

فأدركتُ إذ ذاك سرّهم والتفتّ إليهم صارخاً : « أليس بينكم رجل أو امرأة بعينين أو يدين ؟ »

فأجابوا قائلين : « كلا ، ليس بيننا أحدٌ سوى الصغار الذين لم يبلغوا بعد رشدهم ليقرأوا الكتاب ويعملوا بوصاياه . »

وعندما خرجنا من الهيكل أسرعت فغادرت تلك المدينة المباركة ، لأنّني كنت بالغاً رشدي وقادراً على قراءة الكتاب .

الاله الصالح والاله الشرير

اجتمع الإله الصالح مرة بالإله الشرّير على قنّة جبل . فقال الإله الصالح للشرير : «عِمْ صباحاً يا أخي ! »

فلم ينبس الإله الشرّير ببنت شفة . فقال له الإله الصالح : «يلوح لي أيها الزميل أن مزاجك متعكّرٌ اليوم . »

فأجاب الإله الشرّير قائلاً : «نعم ، أنا مستاء جدّاً لأن القوم في هذه المدّة الأخيرة صاروا لا يميزون بيني وبينك ، وكثيراً ما أسمعهم ينادونني باسمك ولا أكره على نفسي منك ومن اسمك ! »

فقال له الإله الصالح : «إن هذا هو ما يحدث لي أيضاً في كل يوم أيها العزيز ، فإن كثيرين من الناس ينادونني باسمك ويحسبونني إياك . »

فمضى الإله الشرّير في سبيله وهو يحرق الأرّم في قلبه لاعناً حماقة الإنسان وجهله .

في خيبتي غلبتي

يا خيبتي ، يا خيبة ! يا وحدتي وانفرادي ! إنّك لأعز لديّ من ألف انتصار ، وأحلى على قلبي من كل أمجاد الأقطار .

يا خيبتي ، يا خيبة !

يا معرفتي لنفسي واحتقاري لذاتي ، بكِ أعرف أنني لا أزال فتياً

سريع الخطى ، فلا تغريني أكاليل الغار الذابلة الفانية . بلك قد حظيت بوحدتي وانفرادي وتذوّقتُ لذة فراري واحتقاري .

يا خيبتي ، يا خيبة !

يا سيفي البتار وترسي البرّاق ، قد قرأت في عينيك :

ان الانسان متى جلس على عرش الملك فقد صار عبداً .

ومتى أدرك الناس أعماق روحه فقد طوي كتاب حياته .

ومتى بلغ أوجَ كماله فقد قضى نحبه .

بل هو كالثمرة إذا نضجت سقطت واندثرت .

يا خيبتي ، يا خيبة !

يا رفيقي الباسل الودود ، أنتِ وحدكِ تسمعين إنشادي وصراخي وسكوتي ، وليس غيرك يحدثني عن خفقان الأجنحة وهدير البحار ، وعن قذائف البراكين الثائرة في دوامس الليالي .

أنتِ وحدك تتسلّقين صخور نفسي الجلمودية الشامخة .

يا خيبتي ، يا خيبة ! يا شجاعتي التي لا تموت !

أنت تضحكين معي في العاصفة ، وتحفرين معي قبوراً لما يموت مني ومنك ، وتقفين معي أمام وجه الشمس بجلدٍ وثباتٍ ، فنكون معاً هائلين راعبين

الليل والمجنون

المجنون : «أنا مثلك أيها الليل قاتمٌ عارٍ : أمشي على طريق ناريّ يمتدّ فوق أحلام نهاري . وحيثما تمسّ رجلي الأرض ، فهناك تنبثق سنديانة جبارة . »

الليل : «كلا ، لست مثلي أيها المجنون ، فإنّك ما زلت تتلفّت إلى ورائك لترى آثار قدميك على الرمال . »

المجنون : «أنا مثلك أيها الليل صامت وعميق ، وفي قلب وحدتي تتكىء إلاهة تتمخض بمولود علوي تأتلف بكيانه الجنّة والجحيم . »

الليل : «كلا ، لست مثلي أيها المجنون ، فإنّك لا تزال ترتعش أمام الآلام فيهولك سماع أناشيد الهاوية . »

المجنون : «أنا مثلك أيها الليل ، آبدٌ جبّار ، فإنّ أذنيّ مثقلتان بنحيب الأمم المستعبَدة والتحسّر على الممالك المهجورة . »

الليل : «كلا ، لست مثلي أيها المجنون ، لأنّك لا تزال تتخذ ذاتك الصغرى رفيقاً وفيّاً ، ولا تستطيع أن تتّخذ لك من ذاتك الجبّارة صديقاً . »

المجنون : «أنا مثلك أيها الليل صارمٌ وفظيع . فإن قلبي لا يطرب إلاّ لرؤية لهيب المراكب المحترقة في البحار ، وشفتيّ لا تستلذّان سوى دماء الأبطال المصروعين في ساحات الوغى . »

الليل : «كلا : لست مثلي أيها المجنون ، لأن بك شوقاً إلى أخت روحك متسلطاً عليك يُسيّرك كيف شاء . ولم تصرْ بعدُ شريعةً لنفسك . »

المجنون : «أنا مثلك أيها الليل ، جذلٌ وطروب ، فإن الرجل الذي يرافقني سكران أبداً من الخمرة العذراء ، والمرأة التي تصادقني ترتكب

الإثم وهي منشرحة الصدر . »

الليل : « كلا . لست مثلي أيها المجنون ، لأن روحك مقنّعة بقناع ذي طيات سبع وأنت للآن لم تحمل قلبك على كفك.. »

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل ، صبور وكئيب . فإن في صدري ألوفاً من قبور المحبين الذين ماتوا مخلصين فحنّطتهم الدموع وكفّنتهم القبلات الذابلة . »

الليل : « وهل أنت مثلي ؟ أحقاً أنتَ مثلي أيها المجنون ؟ وهل تستطيع أن تمتطي العاصفة جواداً وتمتشق البرق حُساماً ؟ »

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل ؛ أنا مثلك قدير عظيم ؛ وقد بنيتُ عرشي على آكام الآلهة الساقطة وجعلت الأيام تمر أمامي صاغرة تقبّل أهداب ثوبي من غير أن تجرؤ على التطلّع إلى وجهي . »

الليل : « هل أنت مثلي يا ابن قلبي الدامس المدلهم ؟ هل أنت مثلي ؟ وهل تخطر لك أفكاري الجامحة أم تتكلم لغتي الواسعة البيان ؟ »

المجنون : « بلى ؛ إننا أخوان توأمان أيها الليل ؛ فأنت تكشف مكنونات اللانهاية ، وأنا أكشف مكنونات نفسي . »

الوجوه

رأيت وجهاً يظهر بألف مظهر . ووجهاً مظهره واحد أبداً كأنما قد سبك في قالب .

ورأيت وجهاً قدرت أن أقرأ تحت طلاوته الظاهرة بشاعته المستترة

ووجهاً ما رأيت روعة جماله المحتجب حتى رفعت قناعه الظاهر .

ورأيت وجهاً شيخاً قد تجعد ولكن على لا شيء ، ووجهاً ناعساً قد ارتسمت على ملامحه جميع الأشياء .

أنا أعرف الوجوه لأنني أنظر إليها من خلال ما ينسجه بصري فأرى الحقيقة التي وراءها بباصرتي .

البحر الاعظم

ذهبتُ ونفسي إلى البحر العظيم لنستحمّ بمائه . وعندما وصلنا إلى الساحل طفنا نبحث عن مكان مستورٍ عن الأنظار .

وفيما نحن نمشي رأينا رجلاً جالساً على صخرة غبراء وفي يده كيس يأخذ منه حفنات من الملح ويرمي بها إلى البحر .

فقالت لي نفسي : « هوذا المتشائم الذي لا يرى من الحياة سوى ظلها . فلنترك هذا المكان لأننا لا نستطيع أن نستحمّ أمامه . »

فتركنا ذلك المكان وسرنا إلى أن بلغنا جوناً في الشاطىء ، فإذا برجل واقف على صخرة بيضاء وفي يده صندوقة مرصعة بالجواهر يتناول منها قطعاً من السكّر ويرمي بها إلى البحر .

فقالت لي نفسي : « هوذا المتفائل الذي يستبشر بما لا بِشر فيه . فيجب أن لا يرى جسدينا العاريين . »

فتابعنا مسيرنا إلى أن بلغنا إلى شاطىء قريب فرأينا رجلاً يلتقط أسماكاً ميتة ويعيدها إلى الماء بعطفٍ وحنان .

فقالت لي نفسي : « هوذا الانسانيّ الشفيق الذي يحاول إرجاع الحياة لمن في القبور . فلنبتعد عنه . »

فعبرنا به وسرنا إلى موضع آخر فرأينا رجلاً يخطّط ظلّه على المياه فتجيء الأمواج وتمحو خطوطه ، ثم يعود فيخططه مرة بعد مرة .

فقالت لي نفسي : « هذا هو المتصوف الذي يقيم من أوهامه صنماً يعبده . فلنتركه . »

فخلّفناه وراءنا إلى جونٍ صغير في مكان آخر فرأينا رجلاً يكشط الزبد عن سطح الماء ويضعه في كأس من العقيق .

فقالت لي نفسي : « هوذا الخياليّ الذي يحوك من خيوط العناكب رداء يلبسه ، وهو لا يستحقّ أن يرى جسدينا العاريين . »

ثم سرنا قليلاً فسمعنا بغتةً صوتاً يقول : « هذا هو البحر ! هذا هو البحر العميق ! هذا هو البحر الواسع الجبّار ! » فسعينا إلى حيث خرج الصوت : فإذا برجلٍ قد ولّى ظهره شطر البحر ووضع على أذنيه صَدفةً كالقرن وقعد يصغي إلى ما تُرجعه من الصدى .

فقالت لي نفسي : « سر بنا ، فهذا هو الدهريّ الذي ينصرف عن الكليات التي تتجاوز فهمه إلى الجزئيات التافهة التي لا طائل تحتها . »

فخلفناه وراءنا وانطلقنا إلى موضع آخر : فإذا برجل منحنٍ بين الصخور وقد غمر رأسه بالرمل ، فقلت لنفسي : « هلمّي يا نفس لنستحمّ ههنا لأن هذا الرجل لا يستطيع أن يبصرنا . »

فهزّت نفسي رأسها وقالت : « كلا وألف كلا ! فإن هذا الذي تراه هو شر خلق الله . هو الرافضي الخبيث الذي يحجب نفسه عن مأساة الحياة فتحجب الحياة أفراحها عن قلبه . »

فبدت إذ ذاك على وجه نفسي أمارات الحزن والأسى ، وبصوت تقطعه

المرارة قالت : « هلمّ بنا تنصرف من هذه الشواطىء لأنّه ليس فيها مكان خفيّ آمن نستحمّ فيه . فلن أرضى أن تعبث هذه الريح بشعري الذهبي ، ولا أن يكشف هذا الهواء عن صدري الناصع ، ولا أن يظهر هذا النور عُريي المقدّس . »

حينئذٍ تركنا ذلك البحر ناشدين البحر الأعظم .

المصلوب

صرخت بالناس قائلاً : « أودّ لو تصلبوني . » فقالوا : « ولماذا يكون دمك على رؤوسنا ؟ » فقلت لهم : « وكيف تفاخرون بأنفسكم إن لم تصلبوا المجانين ؟ »

فقبلوا قولي وصلبوني . وهدّأ الصلب ثورة نفسي . وعندما كنت معلّقاً بين الأرض والسماء رفعوا رؤوسهم وحدّقوا إليّ وهم يتمايلون عجباً لأن رؤوسهم لم ترتفع قبلُ إلى ما فوق أقدامهم .

وفيما هم مجتمعون حول الصليب رفع واحدٌ منهم صوته وقال لي : « عن أيّ ذنب تكفّر يا هذا ؟ »

ثم قال آخر : « بربّك قل لنا ما الذي دعاك إلى التضحية بنفسك ؟ »

وتلاه ثالث فسألني قائلاً :- « أوتظنّ أيها الجاهل أنّك تشتري مجد العالم بهذا الثمن البخس الذي تقدمه ؟ »

ثم قال رابع : « تأملوا ابتسامته الخرساء كأن لم يحل به شيء ! وهل في استطاعة بشري أن يبتسم لمثل هذا الألم ؟ »

فالتفتُّ إليهم إذ ذاك وقلت لهم : « اذكروا ابتسامتي هذه ولا تذكروا شيئاً غيرها . فأنا لا أكفّر عن ذنب ولا أسعى إلى تضحية ولا أرغب في مجد وليس لي ما أصفح عنه . ولكنني قد عطشت فسألتكم دمي شراباً . وهل من شراب يبرد غلة المجنون سوى دمه ؟ أجل ! وكنت أبكم فسألتكم الجراح أفواهاً . وكنت سجيناً في ظلمة أيامكم ولياليكم فالتمست سبيلاً يؤدي بي إلى أيام أبهى من أيامكم وليالٍ أسعد من لياليكم .

« وها أنا ذا ماض الآن إلى حيث مضى كثيرون ممن صُلبوا قبلي . ولكن لا يخطر لكم أنّنا معاشر المصلوبين نعبأ بصلبكم ، لأنّنا قُدر لنا أن نُصلب من قِبَل جبابرة أشدّ منكم قدرةً وبطشاً بين الأرضين الدنيا والسماوات العليا . »

الفلكي

رأيت وصديقاً لي أعمى جالساً في ظلال الهيكل وحده ، فقال لي صديقي : « هوذا أحكم رجل في قومنا . »

فتركت إذ ذاك صديقي ودنوت من الأعمى فحييته وقعدت بجانبه أجاذبه أطراف الحديث . وبعد هنيهة سألته قائلاً : « منذ كم أنت أعمى يا سيدي ؟ »

فأجابني وقال : « منذ ولادتي يا بني . »

فقلت له : « وأي مذهب من مذاهب الحكمة تتّبع ؟ »

فأجاب قائلاً : « أنا فلكيّ منجم . »

ثم وضع يده على صدره وزاد قائلاً : « إنّني أرصد هذه الشموس وهذه الأقمار وهذه النجوم . »

الحنين الاعظم

ها أنا جالس بين أخي الجبل وأختي البحر . ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا تربطنا محبةٌ عميقةٌ قويةٌ غريبة .

محبةٌ أعمق من أعماق أختي وأقوى من قوة أخي وأغرب من غرائب جنوني.

وكم هنالك من دهور تقضّت قبل أن بدّد الفجر الأول دياجير الظلمة عنا فرأى أحدنا أخاه .

قد شاهدنا ولادة كثير من العوالم واكتمالها وانحلالها بيد أنّنا بعدُ أحداث توّاقون .

أجل ، نحن أحداث توّاقون ولكننا وحيدون مهملون .

نتكيء متعانقين عناقاً أبدياً ولكننا غير مستريحين . وهل من راحة لشوق مستعبَد وشهوة لا تنفد ؟

أين إله النار المتلهّب فيدفىء مضجع أختي ؟

بل أين إلاهة الغيث الفياضة فتخمد براكين أخي ؟

وأنا أشقى الاثنين . من أين لي المرأة التي تتسلّط على قلبي ؟

في سكينة الليل تردّد أختي في أحلامها اسم إله النار المجهول لتدفئتها . وينادي أخي إلاهة الغيث القصيّة لتبريد غلّته . أما أنا فمن ترى أنادي في غفلتي ؟

لست والله أدري ! لست والله أدري !

ها أنا ذا جالس بين أخي الجبل وأختي البحر

ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا ،

تربطنا محبة عميقة قوية غريبة

وريقة عشب وورقة خريف

قالت وريقة عشب لورقة خريف : « إنّك تُحدثين بسقوطك جلبة فتبعثرين أحلام شتائي . »

فأجابتها الورقة مغتاظة : « أيتها الدنيئة أصلاً وفصلاً الفظّة المعقودة اللسان ، من أين لك الأحلام وأنت ملتصقة بقذارات الغبراء بعيدة عن موسيقى الفضاء لا تميزين بين الغناء والمواء ؟ »

قالت ورقة الخريف ذلك وهبطتُ على الأرض فنامت .

وعندما جاء الربيع أفاقت من نومها فإذا بها وريقة عشب .

ثم أقبل الخريف ووافتها هجمة الشتاء فنثر الهواء حواليها أوراق الأشجار الذابلة فتململت في ذاتها قائلة : « اف من أوراق الخريف الثقيلة ! إنها تحدث بسقوطها جلبة وضجيجاً فتبعثر أحلام شتائي . »

العين

قالت العين يوماً لرفيقاتها الحواس : « إنّني أرى وراء هذه الأودية جبلاً مبرقعاً بالغيوم فما أجمله جبلاً ! »

فأصغت الأذن هنيهة لحديثها ثم قالت لها : « أين ذلك الجبل الذي تنظرين ؟ إنّني لا أسمع صوته . »

ثم قالت اليد : « أما أنا فعبثاً أحاول أن أشعر به أو ألمسه . فليس هنالك جبل البتة . »

وقال لها الأنف : « إنّني لا أستطيع أن أفهم كيف يوجد الجبل وأنا لا أقدر أن أشمّه . ألا إن وجوده لمستحيل . »

فتحولت العين إلى جهة أخرى ضاحكة في ذاتها . أما الحواس الأخرى فعقدن مجلساً بحثن فيه عما دعا العين إلى مثل هذا الضلال . وبعد البحث الدقيق قررن بإجماع الآراء : « ان العين قد خرجت ولا شك عن صوابها . »

العالمان

كان في مدينة أفكار القديمة عالمان . وكان كلّ منهما يمقت معرفة الآخر ويحتقرها . وكان الأول كافراً والثاني مؤمناً .

وحدث أنهما اجتمعا مرّة في ساحة المدينة وطفقا يتجادلان ويتحاجان أمام أنصارهما في وجود الآلهة أو عدم وجودها . وبعد أن حمي وطيس الجدال بينهما بضع ساعات مضى كلّ منهما في سبيله .

وفي ذلك المساء بعينه ذهب الكافر إلى الهيكل وجثا على ركبتيه أمام المذبح مستغفراً الآلهة عن جموح ماضيه وصار مؤمناً .

وفي الساعة نفسها أخذ المؤمن كتبه المقدسة فحرقها في ساحة المدينة وصار زنديقاً كافراً .

عندما ولدت كآبتي

عندما ولدت كآبتي أرضعتها حليب العناية وسهرت عليها بعين الحبّ والحنان .

فنمت كآبتي كما ينمو كلّ حيّ – قوية جميلة تفيض بهجة وإشراقاً .

فأحببت كآبتي وأحبتني كآبتي ، وأحببنا معاً العالم المحيط بنا ، لأن كآبتي كانت رقيقة القلب عطوفاً فصيّرت قلبي رقيقاً عطوفاً .

وعندما كنّا نتحادث معاً ، أنا وكآبتي ، كنا نتخذ الأحلام أجنحةً لأيامنا ومناطق للياليناً ، لأن كآبتي كانت فصيحة طليقة اللسان فصيرت لساني فصيحاً طليقاً .

وعندما كنّا نغني معاً ، أنا وكآبتي : كان جيراننا يجلسون إلى نوافذهم مصغين إلى غنائنا ، لأن غناءنا كان عميقاً كأعماق البحر وغريباً كغرائب الذكرى .

وعندما كنّا نمشي ، أنا وكآبتي ، كان الناس يرنون إلينا بعيون تشعّ حبّاً وإعجاباً متحدّثين بنا بأرقّ الألفاظ وأحلاها ، غير أن بعضاً منهم كانوا ينظرون إلينا بعيون الحسد ، لأن الكآبة كانت منقبة محمودة وأنا كنت متباهياً فخوراً بالكآبة .

ثم ماتت كآبتي كما يموت كلّ حيّ وبقيت أنا وحدي مفكّراً متأملاً

وها أنا ذا أتكلم الآن فتستثقل أذناي صوتي ، وأنشد فلا يصغي أحدٌ من جيراني لإنشادي ، وأطوف في الشوارع فلا يعبأ أحدٌ بي ، غير أنّني أتعزّى إذ أسمع في منامي أصواتاً تقول متحسرة :

« انظروا ! انظروا ! فهنا يرقد الرجل الذي ماتت كآبته . »

وعندما ولدت مسرّتي

وعندما ولدت مسرّتي حملتها على ذراعيّ وصعدت بها إلى سطح بيتي أنادي قائلاً : «تعالوا يا جيراني ومعارفي ، تعالوا وانظروا ! فقد ولدت مسرّتي اليوم . تعالوا وانظروا فيض مسرّتي الضاحكة أمام الشمس . »

وشدّ ما كان دهشي لأنّه لم يأت أحدٌ من جيراني ليرى مسرّتي .

وظللت سبعة أشهر أعلن مسرّتي للناس بكرة وأصيلاً من على سطح بيتي ولكن لم يُصغِ أحد قط لصوتي . فبقيت ومسرّتي وحيدين مهملين لا يعبأ أحد بنا .

وما مرّ على ذلك سنة حتى سئمت مسرّتي حياتها فامتقع لونها واعتلّت إذ لم ينبض بحبّها قلب سوى قلبي ، ولم يقبّل فمها سوى فمي .

فقضت مسرّتي في وحشتها وأمسيت لا أذكرها إلا عندما أذكر كآبتي .

وما الذكرى سوى ورقة خريف لا ترتعش في الهواء هنيهة حتى تكفّن بالتراب دهراً .

العالم الكامل

يا إله النفوس الضائعة ، أيها الضائع بين الآلهة استمعي . أيها القدَرُ الرحيم الساهر على نفوسنا التائهة المجنونة اصغِ إليّ : فإنّي وأنا ناقص أعيش بين الكاملين من البشر . أنا ، أنا البشرية المشوشة ، السديم المضطرب العناصر . أتخطّر بين عوالم تامّة من شعوب قد كملت شرائعهم وتنزّهت نظمهم وتنسقت

أفكارهم وترتبت أحلامهم وتسجلت رؤاهم في الأسفار والدواوين

ربّاه ! إن هؤلاء الناس يقيسون فضائلهم بالمقاييس ويزنون خطاياهم بالموازين ، ولديهم سجلات وفهارس لما لا يحصى من التوافه والنقائص التي ليست بالخطايا فتُعرف ولا بالفضائل فتُنصف .

ويقسمون أيامهم ولياليهم إلى أقسام مقنّنة مرتّبة . فيفعلون كل شيء في حينه على وفق ما يخطر لهم . فالأكل والشرب والنوم وكساء العرية ثم السآمة والضجر — كلّ في حينه .

والعمل واللعب والغناء والرقص ثم الاستراحة عندما تحين ساعتها

التفكير بهذا والشعور بذاك ثم العدول عن التفكير والشعور عندما يشرق نجم الأمل السعيد فوق الأفق البعيد .

سلبُ الجار بثغر باسم ومنح العطايا بيد تتوقع الثناء والشكر ، ثم المديح بفطنة والملامة بتروٍّ وقتل النفس وإحراق الجسد بقبلة وغسل اليدين عند المساء كأن لم يكن هنالك من شيء .

المحبة بتقليد مطروق ، والتسلية على منوال مسبوق ، وعبادة الآلهة كما يحقّ ويليق ، والاحتيال على الشياطين والمكر بالزنديق ، ثم نسيان كل ما جرى وصار كأن الذاكرة حلم من أحلام الأغرار .

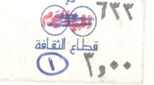
التصوّر لغاية والتأمل بعناية والمسرة بدراية والتألم بوقاية ثم إفراغ كأس الآمال رجاء أن تملأها الأيام في المآل .

رباه ، رباه ! إن جميع هذه يسبق الفكر فيحبل بها والعزيمة فتلدها والدقة فتربيها والنظام فيسودها والعقل فيديرها ، ثم تنحر وتلحد في زوايا سكينة النفوس فتبقى قبورها الموسومة بالعلامات والأرقام عظة لنا ولجميع الأنام .

أجل ، هذا هو العالم الكامل الذي قد بلغ أوجه ، عالم الغرائب والمعجزات ،

بل هو أنضج ثمرة في جنان الله وأسمى عالم بين عوالمه . ولكن لمَ أنا ههنا يا رب؟ لمَ أنا ههنا وأنا ثمرة عجراء لم تنل بعدُ شهوتها من النماء ، وعاصفة صمّاء هوجاء لا شرقاً تبتغي ولا غرباً ، وذرة هائمة تائهة من كوكب محترق ثائر ؟

لمَ أنا ههنا ؟ لمَ أنا ههنا يا إله النفوس الضائعة ، أيها الضائع بين الآلهة ؟


دار
٦٣٢
قطاع الثقافة
٣,٠٠
١